

السياق والتواصل: من العمومية إلى الفاعلية قراءة في المقاربت السوسيو- تداوليت عند كلارك

ثروت محمد مرسي
أكاديمي في التداوليات
مصر

السياق واحد من المصطلحات اللسانية التي تُستعمل باستمرار في كلّ ضروب الكلام لكنّه لا يُحدّد أبداً"
Michael Asher

المستخلص

تسعى هذه الورقة إلى استجلاء مفهوم "السياق" في التوجّه السوسيو-تداوليّ عند كلارك، موضحةً منظوره لاستعمال الألسن في مضامير التواصل الفعليّ بوجه عامّ، الذي انبنى عليه وعيه بالمفهوم حدّاً وإجراءً. لذا تبدأ بقراءة الأسس التي حددها لاستعمال الألسن وقوانينه التي تقوم على "مبدأ النجاعة في التواصل بوصفه نشاطاً تآزريّاً ذا خلفيات مشتركة". ثمّ تتناول رؤيته للسياق بوصفه إطاراً عاماً حاضناً للأنشطة التخاطبية، وصولاً إلى تحديد الجزء الفاعل منه الذي أطلق عليه "السياق الجوهريّ أو الخلفية المشتركة" ومكوناته وروافده.

Abstract

This paper is an investigation of the concept of "Context" at Anglo-Saxon Pragmatics, especially Clark's socio-inferential approach. It seeks to reveal Clark's perspective of human language; its use and usage. Subsequently, it intends to reframe the tenets and rules of language use which take into account one essential issue; "the efficiency of communication process as a joint activity with a common ground". The main target of this paper is to bring the concept of "Context" closer, as a general framework of all communicative joint activities. The paper ends with clarifying and delimitating the essential part of context, which play the most important role in the production and interpretation of situated utterances, this part is the "common ground".

الكلمات المفتاحية: الاستعمال، السياق، التداوليّ، التواصل، الأنشطة التآزريّة، الخلفية المشتركة.

Keywords: Use, Usage, Context, Pragmatic, Communication, Joint Activities, Common Ground

. مدخل

شاع تنويع السياق، في الدراسات اللسانية، بوجه عامّ إلى: السياق اللسانيّ، على مستوى تتابعات الوحدات اللسانية، والسياق الخارجيّ، على مستوى ما هو خارج عن الأطر اللسانية.

وتجنّبنا استعمال مصطلح سياق المقام، على وجه الخصوص، انتباهاً إلى ما أشار إليه تمام حسّان - كي نتحاشى ابتداءً الوقوع في مطابقة المفاهيم والمصطلحات بصورة تؤدّي إلى عدم تمثّلها على نحو صحيح- فقد ذكر أنّ البلاغيّين قد فهموا "المقام، أو مقتضى الحال فهماً سكونيّاً قاليّاً نمطيّاً مجرداً على نحو ما جرّد النّحاة أصل الوضع للحرف وللکلمة وللجملة، ثم قالوا: "لكلّ مقام مقال" (...). فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامّة، وأحوال ساكنة ذات مقتضيات يوزن بها السلوك الحيّ، ويصبّ في قلبها، بهذا يصبح المقام عند البلاغيّين سكونيّاً؛ لأنه حال Static، أمّا النابض بالحياة فهو السلوك اليوميّ للفرد الذي يسعى إلى مطابقة هذه القوالب

الثقافية⁽¹⁾. ثم استدرك على هذه المقاربة وذكر أن الذي يقصده بالمقام "ليس إطاراً ولا قالباً، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر "المتكلم" جزءاً منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم speech event"⁽²⁾. وهذا يثير مسألة خطورة إسقاط المفاهيم المنقولة المستحدثة على المفاهيم التراثية مما يؤدي إلى الالتباس فيهما معاً، ويقلص الإفادة منهما معاً أيضاً. ويجعلنا نحتز من استعمال المصطلح؛ لذا سنستخدم بدلاً منه مصطلح "سياق الموقف".

وقد أكد هيربرت كلارك كثرة الدراسات التي تناولت السياق والسيقية حتى أصاب المفهوم شيء من الاضطراب والابتدال حداً ببعض الباحثين إلى أن يطلقوا عليه أنه أضحي "حاوية قمامة مفاهيمية"⁽³⁾. إلا أننا لا يمكن أن نفهم مقاربتة للسياق دون أن نشير إلى منظوره الخاص باستعمال الألسن بوجه عام، وقوانينه، بوصفه نشاطاً تآزرياً يتفاعل مع السياق تأثيراً وتأثراً. ومن ثم نجيب عن التساؤل الرئيس:

ما السياق؟ وكيف يجري التجادل بينه وبين عملية التواصل؟

1. المبادئ الجوهرية لاستعمال الألسن عند كلارك

ذهب كلارك Herbert H. Clark إلى أن معالجة مفهوم الاستعمال من منطلق كونه فعلاً إنسانياً يستدعي طرح مجموعة من الأسئلة، من قبيل: "ماذا يصنع الناس بالكلام؟ وما أهدافهم ومقاصدهم؟ وما السيرورة التي ينجزون من خلالها هذه الأهداف؟"⁽⁴⁾؛ ولأن التواصل لا يمكن حصره في إنتاج متكلم مجموعة من الجمل بمعنى معين، ومتلق يفهمها، بل هو ضرب من النشاط الجماعي، يفصح فيه المتكلم عن مقاصده، ويحاول شركاؤه في الموقف التخاطبي أن يتكيفون مع هذا الفعل عن طريق المحاولة الجادة في فهم تلك المقاصد؛ إذ إن كلا الطرفين يروم تحقيق أهدافه التي قد يصل إليها وقد لا يصل. فاستعمال اللسان، إذن، ليس محصوراً في نطاق بنية اللسان نفسه، بل هو عملية أوسع منها، وهو ميدان لتفاعل مجموعة من العناصر التي تسهم جميعها في صناعة المعنى ومن ثم نجاح التواصل ونجاحته. وبناءً على رؤية كلارك هذه، فقد رأى أن دراسة الاستعمال تستلزم الانطلاق من ثلاثة مبادئ جوهرية:

مبدأ 1: في الاستعمال اللساني؛ القولة Utterance هي الوحدة الأساسية للتحليل لا الجملة.

مبدأ 2: في الاستعمال اللساني؛ قصد/ مراد المتكلم هو الأصل، أما دلالة الكلمة أو الجملة فهي ثانوية.

مبدأ 3: التحدث والاستماع ليسا نشاطين مستقلين؛ لكنهما جزء من نشاط جماعي⁽⁵⁾.

2. أركان مضامير استعمال الألسن

بناءً على مسلمات الاستعمال التي اعتمدها كلارك، حدّد ثلاثة أركان أساسية لا يقوم مضمار للاستعمال اللساني إلا بها: أولها المشاركون، وثانيها السيرورة الاجتماعية، وثالثها المنشط الجماعي. أما المشاركون فهم "المتكلم والمخاطب وما يمكن أن نطلق عليه المخاطب الكامن، وهم الأشخاص الموجودون في بيئة التخاطب دون أن يقوموا بدور مباشر في عملية التخاطب. ويلزم المشاركون أنفسهم، عادة، بقواعد إضافية تساعد في جعل ما يقولون وما يعنون واضحين⁽⁶⁾. وبدهي أن هؤلاء المشاركين في التخاطب لديهم أهداف من هذه

المشاركة؛" فالحديث في حد ذاته لا يكون مطلباً أولياً في أيّ ميدان تخاطبيّ بل إنّه ينجز أعمالاً اجتماعية، وبناءً على طبيعة العمل الذي يُراد إنجازه تتحدد كيفية الاستعمال، من إتمام عمل أو حل مشكلة أو بيان رأي أو تعليم أو إرشاد⁽⁷⁾. وهذه هي السيرورات الاجتماعية التي توطّر الخطاب، وتحدد هويته وطرائق استعمال اللسان فيه. أمّا المنشط الجماعيّ فيُقصد به أنّ المشاركين المنخرطين في أيّ ميدان للاستعمال "يقومون بأعمال جماعية وأعمال فردية في آن معاً؛ كي ينجزوا ما يريدون إنجازه. وهذا يستلزم التنسيق والتآزر بين عمليتي التحدّث والاستماع⁽⁸⁾، وبدون هذين الشرطين تفقد عملية التخاطب جدواها، ويتضاءل اهتمام أطرافها بها.

3. قوانين استعمال الألسن

يعتمد تحقيق الخطاب لغاياته، التي هي علّة وجوده، على مجموعة من القوانين التي يجب أن يلتزم بها صنّاعه كي يكون استعمالهم للغة ناجحاً. فالخطاب بوصفه " استعمالاً للغة، هو جزء من منشط جماعيّ لا يتم الاستعمال إلّا فيه، وهو، في الوقت نفسه عمل جماعيّ لا يقوم إلا بقصد المتكلم وتأويل المخاطب في إطار من التنسيق والتعاون"⁽⁹⁾، وهذا سارٍ على جميع أنواع الخطابات، مع اختلاف في درجتها حسب ملابسات التخاطب، وسياقاته، وطبيعته المؤسسية.

ويمكن أن نصوغ هذه القوانين - حسب كلارك - على النحو الآتي:

قانون 1. الخلفيات المشتركة⁽¹⁰⁾:

يعتمد استعمال اللسان على قاعدة من المعرفة المشتركة التي يتقاسمها المشاركون، وبناءً عليها تتحدّد طبيعة الاستعمال، وتشكّل سماته.

قانون 2. السيرورة التعاونية⁽¹¹⁾: ينبغي على المشاركين أن ينسقوا فيما بينهم ويتعاونوا ويتآزروا كي يحققوا أغراضهم من عملية التخاطب.

قانون 3. تصميم الخطاب للمخاطب⁽¹²⁾ Audience design:

يصمّم المتكلم قولاته حسب المخاطب بما كي ينجز أهدافه؛ لأنّه لا يتحدّث عبثاً، وعليه أن يضع في اعتباره المخاطب الكامن أيضاً.

قانون 4. تنسيق المعنى⁽¹³⁾:

يستعمل المتكلم في مضمارٍ معيّن كلمات بعينها بالتنسيق مع المشاركين في الحدث الكلامي؛ ومن الطبيعيّ إذن أن تتجاوز المقاصد دلالات الكلمات والتراكيب.

إنّ استعمال اللسان وبناء المعنى ليسا عملاً يقوم به المتكلم فحسب، بل هو صنعة المشاركين في عملية التواصل، فكما يصمّم المتكلم قولاته بناءً على مخاطب بعينه، فإنّ المخاطب يساهم، ولو جزئياً، في تركيب المعنى بناءً على وضع افتراضات واختبارها، والقيام بعمليات استدلال ذهنية لتركيب المعنى. ومن ثمّ فإنّ لجوء المتكلم إلى إخفاء قصده، مثلاً، لا يمكن أن نعزوه فقط إلى إرادة المتكلم، أو إلى المقام، بمعناه الإستاتيكيّ، بل إنّ المخاطب يقوم بدور كبير في توجيه استعمال المتكلم، من خلال الاحتمالات التي يضعها المتكلم لاستجابة

المخاطب وردود فعله؛ ومن هنا فالسياق الموقفى نفسه صنعة المتخاطبين في التواصل؛ لذا يتميز بديناميكية يصعب صورتها. "إن المتكلم حين يستعمل قولة ما يلتفت إلى المؤهلات المعرفية والنفسية والاجتماعية للسامع، وكذلك حين يشرع السامع في تأويل القولة فإنه يلتفت إلى الإكراهات الاجتماعية التي قادت المتكلم إلى صوغ قولته على نحو مخصوص. فسيرورة صنع المعنى إنجاز تآزري بين المتكلم والمخاطب"⁽¹⁴⁾؛ لأن عملية الاستعمال برمتها ذات طبيعة تشاركية جماعية تعاونية.

4. السياق والخلفية المشتركة في التوجه السوسيو-استدلالي عند كلارك

استعرض كلارك كثيراً من تعريفات السياق، واستخلص المشترك منها من حيث التعريف ومكونات المفهوم. ثم خلاص إلى تعريف رآه ملائماً ينص على أن السياق هو⁽¹⁵⁾ المعلومات المتاحة لشخص معين للتفاعل مع سيرورة تخاطبية تآزرية معينة في موقف معين. وهو بهذا يتميز بست سمات أساسية⁽¹⁶⁾:

1- الإخبارية: إذ إنه معلومات تتعلق بالأشياء، والوقائع، والعمليات، والحالات. وقد تأتي هذه المعلومات من الخبرة المباشرة، أو الاستخبار، أو الاستنتاج المبيى على هذين المصدرين، ويمكن أن يتضمن المعرفة الشخصية والاعتقادات والافتراضات.

2- النسبية الذاتية: من حيث ارتباطه بالذات العارفة من حيث إنه معلومات.

3- النسبية الإجرائية: فليست كل المعلومات التي يمتلكها شخص ما تعد سياقا، فهو نسبي من حيث العملية التي يقوم بها الشخص فهماً وتأيلاً.

4- النسبية الموقفية: من حيث كونه معلومات يمتلكها شخص ما للقيام بعملية معينة في موقف مخصوص.

5- الإتاحة: فهو المعلومات المتاحة لشخص ما يقوم بعملية معينة في موقف مخصوص.

6- القابلية للتفاعل: فهو متفاعل مع سيرورات التواصل إن من حيث إنتاج القولات، وإن من حيث تأويلها.

لكن كلارك أقام تمييزاً مهماً بين جزئين للسياق هما: السياق الجوهرى Intrinsic، والسياق الاتفاقي Incidental⁽¹⁷⁾؛ فالأول هو ذلك الجزء من السياق الذي يكون له من الأهمية، على نحو استدلالي، ما يجعله ضرورياً في مناسبة ما لأداء العملية التي نحن بصدد إنجازها. أما الثاني فهو ما كان عرضياً بالنسبة إلى سيرورة الإنجاز، ولا يؤثر فيها على إلا بطريقة غير مباشرة، وهو ما تبقى من عوامل، بعد تحديد الجوهرى منها، ولا يمكننا مراعاته على نحو مقصود.

واعتبر كلارك أن السياق الجوهرى هو الفاعل في عملية فهم القولات في التواصل⁽¹⁸⁾ وهو أساس الفهم لدى المخاطب حيث يمكنه من فهم قصد المتكلم في موقف معين، وينقسم بدوره إلى قسمين: السياق المقصود Intended وهو المعلومات التي يقصد المتكلم أن يراعيها المخاطب في تأويله لقولة ما في موقف معين، والسياق الفعلي Actual وهو المعلومات التي يراعيها المخاطب فعلياً في مقام الفهم والتفسير، وينبغي أن يطابق السياق المقصود. وأطلق كلارك على السياق الجوهرى مصطلح "الخلفية المشتركة Common Ground" التي تتكوّن من المعارف المتبادلة، والاعتقادات المتبادلة، والافتراضات المتبادلة؛ فهي جماع المعلومات التي يفترض

المتخاطبون أنهم يتشاركونها"⁽¹⁹⁾ في أيّ تواصل ونشاط تآزريّ" حيث يحتاج المتواصلون دائماً إلى تقييم وإعادة تقييم الخلفية المشتركة بينهم باستمرار. بما أنّها نوع من الوعي الذاتي"⁽²⁰⁾. وهذا التقييم يبني على مجموعة قواعد تدرج تحت صنفين رئيسين: الانتساب إلى مجتمع، والخبرات الشخصية⁽²¹⁾؛ إذ ينضوي إلى الصنف الأوّل الخبرة المشتركة العمومية للجماعة البشرية أو الثقافية، وطرائق استعمال اللغة، وينضوي إلى الصنف الثاني طرائق التعامل مع الأصدقاء والغرباء، وتأسيس خلفية مشتركة عند الحاجة، والإدراكات الشخصية للأشياء، "والمفكرة الذهنية الشخصية التي تراكم تجارب الإنسان المكتسبة من أنشطته التآزرية السابقة"⁽²²⁾.

لقد عرف كلارك السياق الجوهرى اللازم لفهم المخاطب قصد المتكلم؛ ومن ثمّ نجاعة التواصل، بناء على المفهوم الذي اقترحه وفصله بدقة، نقصد "الخلفية المشتركة". وقد أرجع بعض التداولين مفهوم الخلفية المشتركة إلى إرهابات متناثرة في كتابات غرايس نفسه بوصفها ما يُفترض أنّه مشترك من معلومات بين المنخرطين في محادثة⁽²³⁾، فهي، إذن، جزء من السياق، وسابقة على حدث التكلم. وربطها ستالنيكر R. Stalnaker، الذي يُعدّ أوّل من نظر لهذا المفهوم، بصورة خاصة بالافتراضات السابقة⁽²⁴⁾؛ فالتواصل الناجح يكون متساوفاً مع الافتراضات السابقة حتّى لو أدركنا أنّها كاذبة، لكنّ المعلومات التي ربّما تكون مفترضة يجب أن تكون متاحة بالفعل لا مفترضة فقط. فالخلفية المشتركة تتشابه مع الاعتقاد المشترك بخصوص ما هو مناسب لا ما هو صادق. وعلاقة الخلفية المشتركة بالفرض السابق تكمن في أنّ الفرض السابق، في جوهره، هو تولّد معلومة من قولة، حين تكون القولة مناسبة للمعلومة، مع كون هذه المعلومة معروفة تبادلياً بين المتخاطبين. فالخلفية المشتركة جزء من الفرض السابق. وبناءً على هذا اقترح ستالنيكر أن تُعرّف الخلفية المشتركة على النحو الآتي:

" تكون (س) خلفية مشتركة في جماعة تخاطبية إذا قبل كلُّ أعضائها (س)، لغرض تخاطبيّ. واعتقد جميعهم أنّهم جميعاً يقبلون (س). واعتقد جميعهم أنّهم جميعاً يعتقدون أنّ الجميع يقبل (س)، وهكذا"⁽²⁵⁾.

أمّا كلارك فقد رأى أنّ ذهن المخاطب يستدعي المعلومات ذات العلاقة على ضوء ما يربطه بالمتكلم، ومن ثمّ يستبعد ما ليس له علاقة بهما، واضعاً في اعتباره، بدهاءة، القولة نفسها. ومن هنا لا تسير عملية الفهم والتأويل في فضاء لا نهائيّ من المعطيات السياقية، وإلا أصبح الفهم ضرباً من المستحيل. وبطبيعة الحال لا تكون سيرورات التخاطب على هذا النحو المثالي دائماً، وبناءً عليه كان من خصائص الخلفية المشتركة أنّها قابلة للتقييم وإعادة التقييم ومن ثمّ التعديل، ضيقاً وسعةً، بناء على مجريات التخاطب، وطبيعة المتخاطبين وعلاقتهم. ولا يعني كونها أساسية للفهم أنّها ليست أساسية للإنتاج؛ لأنّ قصد المتكلم وقولاته مؤسّسة أيضاً على ضوء الخلفية المشتركة؛ إذ إنّ الطرفين يهدفان إلى إنجاح التواصل.

4-1. روافد الخلفية المشتركة

قد يبدو بنظرة ساذجة إلى مفهوم الخلفية المشتركة أنّ على المتخاطبين أن يستحضروا في أذهانهم كمّاً غير محدود، ولا نهاية له، من المعطيات المعرفية كي يؤسّسوا عملية تواصل ناجحة؛ وهذا غير ممكن بالطبع، كما أنّ

الفكرة المركزية في هذا المفهوم هي أن الخبرات المتبادلة من معارف واعتقادات وافتراضات "هي تمثيل ذهني أولي يستنتج استقراءياً من صنوف يقينية من الأدلة والبيّنات" (26).

وتستمد الخلفية المشتركة تكوينها - حسب كلارك - من ثلاثة مصادر أساسية (27): المصاحبات اللسانية، والمصاحبات الفيزيائية، والانتساب إلى الجماعة البشرية والثقافية.

1- المصاحبات الفيزيائية:

تمثل المصاحبات الفيزيائية البيئة الأقوى على انتماء شيء ما إلى الخلفية المشتركة؛ إذ إنها تجربة بصرية سمعية وحسية بصفة عامة (28). وسأضرب مثلاً على هذا بشخصين (أ) و (ب) يقفان أمام مكتبة ما في معرض القاهرة الدولي للكتاب ويمسكان نسختين من الكتاب نفسه ويتصفّحانه. إن أحدهما (أ) يستحضر ما يعرفه عن الكتاب ومؤلفه ومجاله المعرفي، ويستحضر أيضاً ما يظن أن الشخص الآخر (ب) يعرفه عن الكتاب، وما يظن أن (ب) يتصور أن (أ) يعرفه عن هذا الكتاب... إلخ.

إن هذه المجموعة من الافتراضات المساعدة (29) هي بصورة أساسية الحد الأدنى الذي يقتضي أن (ب) شخص عاقل، ويعير الكتاب اهتماماً تاماً كما يفعل (أ). فهذه الخبرة تكون واقعة تنتمي إلى المصاحبات الفيزيائية، وهذه الواقعة إضافة إلى الافتراضات تسمح لـ(أ) أن يستنتج ما يتبادله من معارف مع (ب) بخصوص الكتاب. ويتكئى المصاحب الفيزيقي على بيئة طبيعية لوجود (أ) و(ب) والكتاب جميعاً. وهذا الاتكاء يرتبط أيضاً بالطبيعة البشرية " حيث يميل المتخاطبون إلى النظر إلى الظواهر الطبيعية العامة، والحقائق الكونية الأساسية بوصفها خلفية مشتركة؛ فالتاس عموماً يفترضون أننا نعيش في عالم يضم كائنات حية، وأخرى غير حية، وأنها تخضع لقوة الجاذبية، وقوانين نيوتن للحركة، وقوانين العلبة (...). ويفترضون أن كل الناس يتشاركون بعض الحقائق الاجتماعية من قبيل أننا، بوجه عام، نستعمل الألسن في التواصل، وأننا نعيش في جماعات بشرية، وتبادل السلع والخدمات، ولنا أسماء، ونقوم بأدوار متنوعة في مؤسسات مختلفة، وهكذا" (30).

وكل هذه المسلمات تعتبر من روافد السياق الفيزيقي التي يمكن أن تكون مبرراً لابتداء التواصل من ناحية، كما تكون بلا شك أساساً لكثير من استدالاتنا في سيرورة التواصل، من ناحية ثانية.

2- المصاحبات اللسانية:

لنفترض أن (أ)، في المثال السابق، رأى الكتاب، لكن (ب) لم يره. وأراد (أ) أن يخبره أنه رأى كتاباً مهماً نُشر حديثاً في معرض الكتاب، للمؤلف (س) في موضع كذا وكذا؛ فإن (أ) يفترض أولاً أن (ب) يفهم ما يقول على نحو صحيح، وأنه ثانياً عاقل ومهتم بالموضوع؛ وبناءً على هذا يمكنه أن يستنتج أن (ب) أيضاً يفترض وجود الكتاب بالفعل، ويقدر أهميته، وقيمة مؤلفه.

إن مصدر الخلفية المشتركة هنا هو إخبار (أ) عن الكتاب متوسطاً باللغة، "المصاحبات اللسانية تتكئى على بيئة رمزية لوجودهم المشترك" (31)، على النقيض من المصاحبات الفيزيائية. وبطبيعة الحال تعتمد المصاحبات اللسانية على ما أطلق عليه كلارك "المعجم المشترك"؛ "فأغلب استدالاتنا تعتمد، على نحو ضيق، على الجماعة

اللسانية التي ينتمي إليها الشخص الذي نخطبه"⁽³²⁾، فكل جماعة لسانية لها معجمها وموضوعاتها التي تستعمل عند التواصل، وتعدّ خلفيّةً مشتركة بين أفرادها.

3- الانتماء إلى المجتمع نفسه⁽³³⁾:

في مفتتح أية عملية تخاطب يكون المتخاطبون على وعي بانتمائهم إلى المجتمع نفسه، أو عدم انتمائهم أيضاً. سواء أكان هذا المجتمع يعني الجماعة البشرية، أم الثقافية، أم العلمية، أم الانتماء إلى مؤسسة واحدة، أم مجال عملٍ مشترك. وهذا يجعل من الممكن بالنسبة إليهم أن يؤسسوا استدلالاً لهم على العموميّات المشتركة المعروفة لدى ها المجتمع، أو القدر المعين من المعرفة المشتركة الذي تتقاسمه الجماعة المعينة. "ولعلنا نلاحظ أنّ المصاحبين الفيزيقيّ واللسانيّ يكونان وقائع محدودة زمانياً، في حين يكون الانتماء إلى المجتمع الواحد وقائع تمتاز بالديمومة والثبات"⁽³⁴⁾. وتعدّ العادات والمعايير والإجراءات الثقافية المشكّلة للأنشطة التآزريّة بوجه عامّ روافد للمصاحبات المجتمعيّة؛ "فالأمريكيون مثلاً يعتبرون مبادئ التاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم والأدب، التي تعلّموها في المدرسة، والأحداث الجارية، مثل: أسماء السياسيين ونجوم السينما والشخصيات التلفزيونيّة، والصحف، والمجلات، والطوائف الدينيّة، والأحزاب السياسيّة، خلفيّة مشتركة فيما بينهم"⁽³⁵⁾. وتستمد الخلفيّة المشتركة بين المتخاطبين مقدّمات استدلالاً لها من تعاضد هذه الروافد الثلاثة.

4-2. أنساق السياق عند كلارك

سبق أن أشرنا إلى أنّ السياق الجوهريّ للفهم وتأويل قصد المتكلّم يمثّل الخلفيّة المشتركة بين المتكلّم والمخاطب. وبناءً على روافد الخلفيّة المشتركة يمكننا أن نحدّد ثلاثة أنساق للسياق⁽³⁶⁾:

1- السياق الفيزيقيّ:

يعدّ المخاطبُ خلفيّةً مشتركةً بينه وبين المتكلّم الخبرات والتجارب التي مرّا وبمران بها أثناء التكلّم.

2- السياق اللسانيّ:

يعدّ المخاطبُ خلفيّةً مشتركةً بينه وبين المتكلّم كلّ القولات السابقة على القولة التي هو بصدد تأويلها إضافة إلى القولة نفسها. هذا يعني أنّ الخلفيّة المشتركة ليست معطى ثابتاً بل هي في حالة بناء مستمر عن طريق تراكم روافدها.

3- السياق المجتمعيّ:

"يعتبر المتخاطبون العموميّات المعروفة بالنسبة إلى المجتمع الذي ينتسبون إليه خلفيّةً مشتركةً بينهم"⁽³⁷⁾. فالمصريّ، مثلاً، لا يمكن أن يؤسس التخاطب على افتراض معرفة أوربيّ بما يحدث في طقس شعبيّ معيّن في مصر، وهذه المعرفة مهمّة وجوهريّة لفهم قصد المتكلّم، في حين يستطيع أن يبني على ذلك حين يخاطب مصريّاً، ولو كان هذا الطقس خاصّاً ببيئة معيّنة من البيئات أو المناطق المصريّة؛ فإنّه لن يؤسس على معرفة المخاطب به إن لم يكن من البيئة نفسها. ومن الطبيعيّ ألا يتساوى أبناء المجتمع في معرفتهم بهذه الأشياء، إلا أنّ القدر الموجود منها، والطبيعة التعاونيّة للتخاطب، يقومان بجبر هذه النقائص.

4-3. تأسيس الخلفية المشتركة وتحيينها

يؤسس المتخاطبون تواصلهم بناءً على الخلفية المشتركة من اعتقادات ومعارف وافتراسات مُبادلة؛ لكنهم كما يحتاجون إلى تأسيس هذه الخلفية نفسها لابتداء التواصل؛ فإنهم يحتاجون أيضاً إلى تحيينها باستمرار، حيث إنّ الأنشطة التأزيرية تنبني لا على الخلفية المشتركة فحسب بل على تحيينها وتراكمها في آن، وبناء على هذا اقترح كلارك مفهومًا إجرائيًا هو " تحيين الخلفية المشتركة" وقصد به " أنّ المتخاطبين يحاولون تأسيس أرضية لما يفعلونه سويًا. وتحيين الخلفية المشتركة يعني تأسيس ما يُعتبر جزءاً منها بما يُعدّ مناسباً وكافياً بالنظر إلى الأهداف والغايات الآتية"⁽³⁸⁾. وهذا من طبيعته أن يحدث وفق مستويات التواصل وتطوّرات النشاط التأزيري وطبقاته.

وقد ذكر كلارك⁽³⁹⁾ أنّ عملية التواصل جرى تفسيرها تقليدياً عبر "مبدأ الجهد الأدنى" الذي يقضي أنّ المتواصلين لا يفضلون بذل أيّ مجهود زائد عن الحاجة؛ حيث يُفترض أن ينشئ المتكلم "القولات الملائمة" التي يعتقد أنّ المخاطب سيتمكن بسهولة من فهمها على نحو تامّ. لكنّ هذا المبدأ على هذا النحو تعترضه مشكلات ثلاثة⁽⁴⁰⁾:

- 1- ضغط الوقت: يبدو أنّ المتكلمين يحدّدون الوقت والمجهود الذي يبذلونه لتخطيط قولاتهم وإنتاجها، وهذا يؤدي في بعض الأحيان إلى إنتاج "قولات غير ملائمة". وهذا يقود إلى المشكلة الثانية.
 - 2- العثرات: يُنتج المتكلمون، بسبب ما ذكرناه في المشكلة الأولى، قولات غير ملائمة نتيجة لعثرات مختلفة، لسانيًا أو سياقياً، يكون عليهم أن يصلحوها أثناء سيرورة التخاطب.
 - 3- عدم المعرفة: يدرك المتكلمون أحياناً أنّهم لا يعرفون المخاطبين بالقدر الكافي الذي يسمح لهم بإنتاج قولات ملائمة، وهذا يجبرهم على إنتاج قولات غير ملائمة.
- وبناءً على هذا فإنّ "مبدأ الجهد الأدنى" يجب أن تُعاد صياغته على النحو الآتي:

" مبدأ الجهد التشاركيّ الأدنى The principle of least collaborative effort: المشاركان في التخاطب يحاولان أن يُخفّضا جهدهما التشاركيّ؛ أي: العمل الذي يقومان به من بداية قبولهم المتبادل للتواصل، والمساهمة فيه"⁽⁴¹⁾. وهذا يعني أنّ تخفيض الجهد إنّما يكون عن طريق التأزير التخاطبيّ.

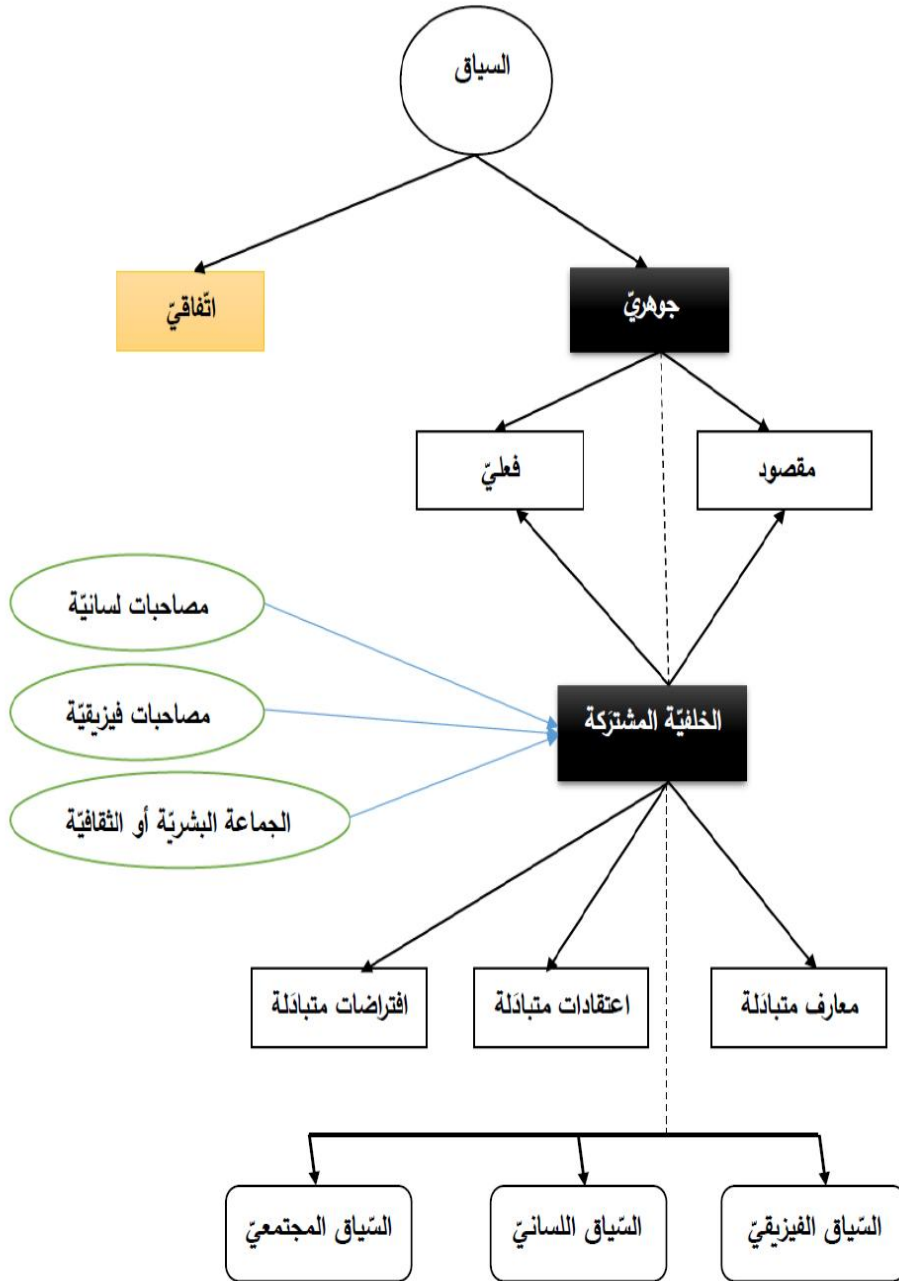
إنّ مفهوم الخلفية المشتركة برمته يقوم على وعي المتخاطبين وإدراكهم لأهدافهم الخاصة والأهداف المشتركة في آن. ومن ثمّ فإنّ إدراك المتخاطبين للمشكلات التي تواجه تأسيسها وتحيينها يدفع كل طرف إلى إقحام شريك التواصل في مساعدته في إتمام إنتاج القولات الملائمة، أو إتمام تأويلها أيضاً؛ بما أنّهما في نشاط تأزيريّ. وبما أنّهما في عملية تخاطب فهما يؤسسان أغراضاً مشتركة في الوقت نفسه؛ " لذا يعتمد تحيين الخلفية المشتركة على هذه الأغراض؛ ومن ثمّ تتغيّر تقنيّات التخاطب بناءً على تغيّر الأغراض التشاركيّة، حيث إنّ الهدف هو أن يفهم المخاطب ما يقصده المتكلم لإنجاح التواصل"⁽⁴²⁾. وبناءً على مبدأ الجهد التشاركيّ الأدنى فإنّ المتواصلين يحاولون بذل الجهد الأقلّ، لكنّ هذا لا يمكن أن يكون مضطرباً، لأنّ التحكّم في مجريات

التخاطب ليس ممكناً طيلة الوقت، وليس بأيديهم دائماً. وما يهمننا من المؤثرات هنا هو تغيير الوسائط وأثره في مسألة التحيين؛ فالتواصل الشفهيّ المباشر وجهاً لوجه، يختلف عن المكتوب، بل يختلف أيضاً عن التواصل الشفهيّ عبر الهاتف، والتواصل المكتوب عبر كتاب يختلف عن التواصل المكتوب الفوريّ، عبر برامج الاتصال بالمحادثة على سبيل المثال. من ثمّ يخضع تحيين الخلفية المشتركة لمجموعة من الإكراهات والمحددات، " يختصّ منها الخطاب المكتوب باثنتين: هما القابلية لإعادة العرض، أي: بعد إنتاج الخطاب وإطلاع الطرف الآخر عليه، والقابلية للمراجعة، أي من قبل منتج الخطاب وقبل إطلاع الطرف الآخر عليه. وستة أخرى يختصّ بها التواصل المباشر، وجهاً لوجه، هي: الحضور، والرؤية، والسّماع، والتّصاحب الوقفيّ، أي: تلقيّ الخطاب بمجرد إنتاجه، والتّزامن، أي: إمكانيّة تناقل الخطاب وتسلمه من الطرفين كليهما في الوقت نفسه، خاصّة المكونات غير اللسانيّة؛ كأن يتسم أحدهما ابتساماً دالّة أثناء كلام الآخر، والتتابعيّة، أي: متواليّة أخذ الأدوار في المحادثة"⁽⁴³⁾. وهذه العوامل تؤثر تأثيراً مباشراً، إن على مستوى تأسيس الخلفية المشتركة وإدراكها، وإن على مستوى تحيينها، ممّا يعني ضرورة أن يأخذها منتج الخطاب بعين الاعتبار.

5. خلاصة مقارنة كلارك

قدّم كلارك مقارنة دقيقة وشاملة لمفهوم السياق ومكوناته وروافده، مفرّقاً بين ما هو جوهريّ وما هو اتّفاقيّ. واعتبر أنّ السياق الجوهري هو أساس عمليّة التواصل من حيث كونه أساساً لعمليّة الفهم والتأويل التي يقوم بها المخاطب. لكنّ هذه العمليّة أيضاً، رغم ارتكازها على المخاطب ليست أحاديّة الجانب؛ لأنّ استعمال اللغة في نفسه نشاط تآزريّ يبني على وعي المتخاطبين وإدراكهم لطبيعة أدوارهم التعاونيّة. لذلك كان مفهوم الخلفية المشتركة عنده ممثلاً لهذا المنطلق التشاركيّ؛ إذ إنّها ليست معطى جامداً بل هي تسترشد معطيات، وتُنشئ أخرى، وبناءً على طبيعة الروافد حدّد ثلاثة أنواع للسياق: السياق الفيزيقيّ، والسياق اللسانيّ، والسياق المجتمعيّ. وأوضح كلارك أنّ هناك معوقات تعترض تحيين الخلفية المشتركة، وإكراهات تحدّها، إلّا أنّ الأهداف والأغراض التشاركيّة للمتخاطبين، وانطلاقاً من حرصهم على عدم إهدار الجهد، تدفعهم إلى تجاوزها لإنجاح التواصل تآزريّاً.

ويمكننا أن نلخص فكرة كلارك في الشكل الآتي:



شكل رقم (1) الخلفية المشتركة حسب كلارك

(1) حسان، تمام. الأصول: دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. القاهرة: عالم الكتب، 2002، ص 303.

(2) المرجع نفسه، ص 304.

³ Clark, H. Arenas of Language Use. Chicago: Chicago U Press, 1992. Print, pg 60.

⁴ See. Ibid, pg x.

⁵ See. Ibid. pp xiii, xv and xvi. And,

Colston , Herbert L. Using figurative language. New York, NY: Cambridge U Press, 2015. Print, pp 124-125.

⁶ See. Ibid. pg xvii

⁷ See. Clark, Herbert H. Using Language. Cambridge: Cambridge U press, 1996. Print, pp 3-4.

⁸ See. Clark, Herbert H. Arenas of Language Use. Ibid, pg xvii.

⁹ See. Ibid. pp 23 & 29.

¹⁰ See. Ibid, pp 97-98.

¹¹ See. Ibid. pg 103.

¹² See. Ibid. pg 201.

¹³ See. Ibid. pg 301-302.

¹⁴ Thomas, Jenny. Meaning in interaction: an introduction to pragmatics. London: Longman, 1995. Print, pg 208.

¹⁵ See. Clark, Herbert H. Arenas of Language Use. Ibid, pg 64.

¹⁶ See. Ibid, pp 63-64.

¹⁷ See. Ibid, pp 66-67.

¹⁸ See. Ibid, pg 67.

¹⁹ Clark, H. Context and Common Ground, in, in Mey, Jacob (edit). Concise encyclopedia of pragmatics. Amsterdam: Elsevier, 2009. Print, pg 117.

¹⁹ Clark, H. Using Language, pg 116.

²⁰ See. Clark, H. Using Language, Ibid, pg 120.

²¹ Clark, H. Context and Common Ground, Ibid, pg 117.

²² Clark, H. Using Language, Ibid, pg 114.

- ²²³ See. Stalnaker, Robert. Common Ground, in, Stalnaker, Robert. *Linguistics and Philosophy* 25.5/6 (2002): 701-21. Print, pg 701.
- ²²⁴ See. Ibid, pp 716-717.
- ²²⁵ Ibid, pg 716.
- ²²⁶ See. Clark. H. *Arenas of Language Use*, Ibid, pg 69.
- ²²⁷ See. Ibid, pg 71.
- ²²⁸ See. Ibid, pg 69.
- ²²⁹ See. Ibid.
- ²³⁰ Clark, H. *Using Language*, Ibid, pg 107.
- ²³¹ See. Clark. H. *Arenas of Language Use*, Ibid, pg 70.
- ²³² Clark, H. *Using Language*, Ibid, pg 107.
- ²³³ See. Ibid, pp 100-101-102.
- ²³⁴ Clark, H. *Arenas of Language use*, Ibid, pg 70.
- ²³⁵ Clark, H. *Using Language*, Ibid, pg 108.
- ²³⁶ See. Ibid, pg 71.
- ²³⁷ See. Ibid, pg 72. And, Clark, H. *Using Language*, Ibid, pg 100.
- ²³⁸ Clark, H. *Using Language*, Ibid, pg 221.
- ²³⁹ See. Clark, H & Brennan, Susan. *Grounding in Communication*, in Resnick, Lauren B., John M. Levine, and Stephanie D. Teasley (edits). *Perspectives on socially shared cognition*. Washington, DC: American Psychological Association, 1991. Print, pg 127.
- ²⁴⁰ Ibid, pp 134-135.
- ²⁴¹ See. Ibid, pg 135.
- ²⁴² Ibid, pg 136.
- ²⁴³ See. Ibid, pg 147.

المراجع

أ. العربية

- باديس، نرجس. المشيرات المقامية في اللغة العربية. تونس: مركز النشر الجامعي. ط1، 2009م.
- الشاوش، محمد. أصول تحليل الخطاب في النظرية التحوية العربية، مجلدان. تونس: جامعة منوبة، بيروت: المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، 2001م.
- عبد الرحمن، طه. في أصول الحوار وتحديد علم الكلام. الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، ط5، 2014م.
- _____ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2012م.
- علوي، محمد إسماعيلي. التواصل الإنساني: دراسة لسانية. الأردن: دار كنوز المعرفة، ط1، 2013م.
- علي، محمد محمد يونس. علم التخاطب الإسلامي: دراسة لسانية لناهج علماء الأصول في فهم النص. دار المدى الإسلامي. ط1، 2006م.
- _____ تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو بناء نظرية المسالك والغايات. الأردن: دار كنوز المعرفة، ط1، 2016م.

ب. الأجنبية

- Ariel, Mira. Defining pragmatics. New York: Cambridge U Press, 2010. Print.
- Birner, Betty J. Introduction to pragmatics. Chichester, West Sussex, UK: Wiley-Blackwell, A John Wiley & Sons, Ltd., Publication, 2013. Print.
- Chomsky, Noam. The Development of Grammar in Child Language: Discussion.” Monographs of the Society for Research in Child Development, vol. 29, no. 1, 1964, pp. 35–42.
- Clark, Herbert H. Arenas of Language Use. Chicago: Chicago U Press, 1992. Print.
- Clark, Herbert H. Using language. Cambridge: Cambridge U press, 1996. Print.
- Colston, Herbert L. Using figurative language. New York, NY: Cambridge U Press, 2015. Print.
- Dikken, Marcel Den. The Cambridge handbook of generative syntax. Cambridge: Cambridge U Press, 2013. Print.
- G., De Villiers Jill, and Thomas Roeper. Handbook of generative approaches to language acquisition. Dordrecht: Springer, 2011. Print.
- Kecskes, Istvan. Intercultural pragmatics. Oxford: Oxford U Press, 2014. Print.
- Levinson, Stephen C. Pragmatics. Cambridge: Cambridge U Press, 1983. Print.
- Mey, Jacob. Pragmatics: an introduction. Malden, MA: Blackwell Publishers, 2001. Print.
- Scott-Phillips, Thom. Speaking our minds: why human communication is different, and how language evolved to make it ... special. Place of publication not identified: Palgrave Macmillan, 2014. Print.
- Tanesini, Alessandra. Philosophy of language A-Z. Edinburgh: Edinburgh U Press, 2007. Print.
- Thomas, Jenny. Meaning in interaction: an introduction to pragmatics. London: Longman, 1995. Print.
- Wales, Katie. A dictionary of stylistics. London: Longman, 1989. Print.